الاسلوب الذي استمـرت تمارسه، طوال السنوات الماضية، بعض الكتابات التاريخية، في التعامل مع الرجل وقضيته. لقد بنى المؤرخون الفلسطينيون، طوال الأعوام الماضية، صورة للقسّـام تكـاد تكـون اسطورية، واقاموا من حول شخصيته هالة من التمجيد الأخلاقي الديماغوجي، أقل ما يمكن ان يقال فيها، انها اساءت لقضيته، واضافت أمام البحث العلمي غير المتحيز، عراقيل تضاف إلى مجموعة العراقيل والصعوبات الكامنة، أصلاً، في التعقيدات التي تحيط بعملية فهم المغزى التاريخي الذي حاولت ان تلعبه وتضطلع به الحركة القسّامية، وذلك ليس بصفتها أحد المكونات للتشكيلات الايديولوجية والسياسية التي يقوم عليها بناء الحركة الوطنية الفلسطينية؛ وانما بصفتها الدلالية أيضاً، في اطار الاستمرارية الايديولوجية للمشاريع التي طرحها في عموم المنطقة تيار الحركة السلفية، الذي يمكن من النظر إلى الحركة القسّامية كأحد اشكال حضور هذا التيار في الحركة الوطنية الفلسطينية.

ومع ذلك، فانه ينبغي الاستدراك للقول ان هذا الدور الذي قام به بعض المؤرخين ـ وهم على أية حال كتبوا تحت تأثير مواقف ايديولوجية مسبقة ـ لم يكن يشكل النموذج الوحيد الذي ساهم بوضـع العراقيل أمام محاولة فهم المغزى الخاص الذي انطوت عليه الحركة القسّامية، بل ان هناك أطرافاً أخرى لم يكن اسهامها أقل أهمية في هذا المجال في اقامة ذلك الطوق الحـديـدي من الجهـل والصمت الذي فُرض حول شخصية الرجل وحركته طوال الفترات الماضية. ولكي يتبين القارئ طبيعة هذا الطوق الذي فُرض على شخصية القسّام يكفي، فقط، ان يستعيد مواقف القوى والاحزاب الرئيسة في الحركة الوطنية الفلسطينية من شخصية القسّام وحركته، ليرى أي نوع من انواع النفاق الايديولوجي، والسياسي، ذلك الذي تعاملت به هذه الاطراف.

لقد امكن خلال الخمسين عاماً الماضية، ان يظهر القسّام، في صور أربع شخصيات، واحدة منها فقط هي صورته الحقيقية، أما الثلاث الأخريات، فكانت صوراً لاشخاص آخرين لا يمتون إليه بصلة. أما هذه الصور الأربع، فكانت على النحو التالي: ١ ـ صورة داعية ليبرالي للقومية العربية في حزب الاستقلال[١]؛ ٢ ـ صورته كأحد أركان الحزب العربي بزعامة المفتي الحاج أمين الحسيني[٢]، ٣ ـ ثم، الصورة الثالثة التي أمكن ظهوره فيها، وهو يمثل رمزاً ملهماً لاحزاب اليسار الماركسي الفلسطيني ومنظماته؛ ٤ ـ وصورته الأصلية، كداعية دين، في اطار الحركة السلفية الحديثة، التي كانت دعوته وممارسته واحدة من امتداداتها الرئيسة.

إن هذا الالتقاء الغريب، بين الاطراف الرئيسة في الحركة الوطنية الفلسطينية، على تبني حركة القسّام ورسم صورة خاصة لشخصية مؤسسها، يطرح، بلا شك، علامات استفهام حول الاسباب التي دعت هذه الأطراف جميعاً، إلى ان تتعامل مع قضية الرجل على هذا النحو. ولكن لنحاول ان نقدم تفسيراً لهذه الاشكالية، التي من الضروري استجلاء ابعادها، من أجل التفرغ، بعد ذلك، لبحث موضوعنا الاصلي.

التناقض الاشكالي

قلنا ان التيارات الرئيسة المنضوية في اطار الحركة الوطنية الفلسطينية التقت، جميعها، في محاولة رسم صورة خاصة لشخصية القسّام. وقد اشرنا بصورة عابرة، أيضاً، إلى ان هذه